ابن . . .

الأستاذ لبيب السعيد

كان ذلك فى مطالع شبابى غب تخرجى فى مدرسة التجارة ، حين آثر أبى أن ينشئ لى متجراً ، وكان هو وجدى وقتئذ رعيان تجارتى الناشئة ، ويقضيان مى الساعات ، يوجهان العمال ، ويشاركان فى استقبال الحرفاء ، ويشيران لى فى كل مناسبة طريق الجديدة . وكنت يومئذ شديد الرغبة فى النجاح ، فكنت أستدفع الضجر ، وأطامن من اعتزازى بآرائى ، وأقبل توجيهات أبى وجدى راجياً أن أتنور على هديهما مقصدى

وكان أبى لا ينفك يوصينى بألا أبيع بالنسيئة أبداً ، ويقول لى : يا بنى ! خير لك أن تبقى بضاعتك أمام عينك من أن تعطيها الناس ثم تظل فى انتظار ثمنها يدفع أو لا يدفع . وكنت أعرف ما جرته النسيئة على أبى من متاعب ، فبدا لى أن آخذ وصاته مبدأ أساسياً لمتجرى لا أنحرف عنه

ووقفت عصر يوم بجانب مكتبى النصف دائرى ، وأنا جذلان بنظام محلى ووفرة محتوياته وبيشائر النجاح بادية فى إقبال الحرفاء ورضاهم ... وقفت أقبض أثمان المبيعات ، وأوجه العمال أمراً بعد أمر ، وأنطلق بين لحظة وأخرى مع مرسلات الأمانى . وفيما أنا كذلك ، إذ أقبل علىّ شيخ حطمه الشلل يتحامل على عصا غليظة ، وعليه ملابس بلدية موشكة على البلى وإن تكن فاخرة الصنف ، وفى صحبته طفل فى نحو الخامسة يلبس جلباباً قصيراً خفيفاً ، ويحمل وجهه سمات حزن لا يكون فى أمثاله

وقال الشيخ فى لهجة عزيزة ومنكسرة معاً : « أعطنى يابنى عشر أقات دقيقاً » ، فهتفت حالا بالعامل القريب : « زن لحضرته ما يطلب وخذ منه ثلاثين قرشاً » ؛ وأجاب الرجل وهو يتكلف الابتسام : « بل يزن المطلوب ويكتب علىّ ثمنه » ، فما أسرع ما اندفعت قائلا فى تصميم قاطع : « مستحيل هنا » ؛ وابتسم الرجل ابتسامة واهنة ، وقال وهو يتلفت كأنه يتحرى ألا يسمعه أحد : « بل ليس مستحيلا ، ولا تمنع عمك أحمد الناجى ما يطلب ، لا ضامتك الأيام » ، ولكنى نظرت إليه نظرة لا رفق فيها ، وقلت كأنى أستعجله مغادرة المتجر : « مستحيل جداً يا عمى ، وبالله دعنا فى شغلنا »

ونظر الشيخ إلىّ ثم إلى طفله نظرات المغضب المغلوب المتحسر فكدت لفرط ما تأثرت بهذه النظرات أستجيب لطلبته لولا أن ذكرت أن الأمر أمر مبدأ ، وإنى إن بذرت اليوم للنسيئة حبة فسأبذر غيرها غداً ، وإذن فسأجنى الثمرة المرة التى جناها أبى ، والتى حذرنى منها تحذيرا . واستدار الرجل فى صعوبة وهو يتكىء ببدنه كله على عصاه ، وجر رجليه جراً إلى الطريق ومعه طفله الذى كان يحكى هزاله وحقارة ملبسه حكاية البؤس مؤثرة وجيعة

ونزل جدى فى هذا الوقت من عربته يصلح وضع مظلته ، ويلقى السلام على جيران المحل ، وما بصر بالشيخ حتى وقف يصافحه بحرارة مبادلا إياه تحيات أيديهما لى كشقيقين على صفاء ومحبة ، وأسرعت فتقدمت لجدى كرسياً ، ولكنه قدمه إلى الشيخ فى اهتمام وهو يقول : « أيها الأخ ! إنى سائل عنك ، قلبى معك » ونادى صبياً يعمل فى المتجر أن يحضر قهوة للشيخ . وإذ رأيت عواطف جدى نحو الشيخ تولانى خجل شديد لما فعلت معه ، ولكن تولانى أيضاً خوف من أن أورط فى هذه العشى الأقات . وتحدث جدى مع الشيخ لحظات فى صوت خفيض ، فما لبث جدى أن صاح بى فى لهجة ناهرة : « أهكذا يا محمد تفعل مع الشيخ ؟ ! زن له عشرين أقة » وصدعت بالأمر كارهاً !

أمر جدى أحد العمال بنقل الدقيق إلى بيت الشيخ الذى غلا البشر صفحته ، والذى قال وهو قائم يخطو إلى الشارع : « أكتب عندك ستين قرشاً على أحمد الناجى » ؛ وانطلق متحاملا على نفسه وأنا أتبعه بنظراتى غضبان أسفاً لكسر مبدئى التجارى ، وأهمس لعامل قريب معرضاً بجدى : « شيوخ طيبون ، يصدقون كل شىء ، ويدخل الاحتيال عليهم »

وقعد جدى يردد أدعية بالستر الجميل له ولذريته ، ثم قال مسمعاً إياى والأسف ظاهر فى وجهه : « إنها الدنيا ! الشيخ أحمد الناجى تعوزه أقات من الدقيق ! الشيخ الناجى الذى كان يتصدق بالقمح أرادب ! قضاء الله ! مناعت أمواله الضخمة ، وأصابه الكبر والشلل ، وتخطف الموت امرأته وهو أحوج ما يكون إليها ، وله كما رأيت طفل ضعيف تعوزه التربية ! »

وجعل جدى يحرك قبضة عصاه فى شبه حركة عصبية ، وهو يبدئ ويعيد فى الحديث عن صديقه الشيخ مظهراً غضبه منى إذ لم

أسارع إلى تنفيس ضائقته ، ولم أقدم إليه من الاحترام ما هو كفاء منزلته وعبرلته

وجاءني أبي مساء ، فحدثته بالذي كان ، وكأنما كنت أريد أن أقول له : أنظر ما ذا فعل أبوك ! فكان يضحك لهجتي ، ولكن وجهه كان ينم عن تأثره لمأساة الشيخ الناجي ، ومضى يحكيها لي مفصلة وهو يحوقل ويسترجع ، على أنه ما لبث أن قالها بينة صريحة : « ومع ذلك فلا تعط أحداً بعدها شيئاً بالنسيئة »

ومرت أيام ، فجاء الشيخ الناجي يوجه فيه الأسى ، وكمهدي به اتخذ من عصاه رجلا بعد رجل ، وتكلف لي ابتسامة جاءت خجلى متكمشة وقال : لا تضق بي يا بني ، إن لي إليك رجاء يسيراً ... أتأذن بقرش حلاوة لهذا الصغير ؟ (مشيراً إلى ولده).

وعض الحزن على قلبي للطفل الشاخص ببصره إلى الحلاوة ، واستحيت لكرامة جدي ، فأسرعت بنفسي وقدمت إلى الطفل قطعة من الحلاوة ، ثم التفت إلى الشيخ أسأله مجاملا : ثم ماذا ؟ فأجاب : « لا شيء ، جعلك الله من السعداء »

وجلس على كرسي وأمارات التعب الساغب عليه ، واحتضن ولده في حنان وأسف وهو يقول له بنبرة حزينة : يابني المسكين ! تأكل مما يقترض أبوك ؟ !

وسمعت عاملين يتهامسان بما ينقض عوز الشيخ ، وبأنه يقول ما يقول ليسرق عطفي . ولينفي عني كل شك ، فهمت نفسي بتصديقهما لولا أن ذكرت تفاصيل ما قصه علي أبي وجدي

ومضى الشيخ يجر جسمه وطفله . وانقضت أشهر وأنا لا أراه حتى كان يوم وردت فيه جنازة إلى المسجد القريب من المتجر ليصلى عليها ، ووقف المشيعون ينتظرونها عن كثب من المحل ؛ وقال قائل : يرحم الله الشيخ أحمد الناجي ! وقال آخر : ياما أحرز ! فقال ثالث : ويا ما أضاع !

وسعى أمامي الركب الذي لا يعود صاحبه ، وأنا أتمتم في غير اكتراث كبير : « الله يرحمه ... ويعوض علي ما في ذمته ! »

وغبرت سبع سنين ورد فيها جدي حياض المنون ، ولم يفسح بعد لأبي في رحاب العمر ، بل عاجله الأجل الصارم ، وتحلبت علي أموالنا أشداق الطامعين من الأقارب والأباعد ، حتى ليخيل إلي أن لو كنا نؤكل ما عفوا ولا شبعوا .

وكنت رشيد إخوتي فألقيت على كتفي أثقال الأسرة . وكان أفدح هذه الأثقال أن أسترد ما لأبي وأقضي ما عليه . لقد كان أبي يكره أن يستدين أو يدين ؛ ولكن التجارة أركبته رغمه هذا المركب

واتصلت بالمدينين فهالني الأمر . هذا معدم يقول : كان بودي ... ؛ وهذا منكر يقول : أمامك المحاكم ... ؛ وهذا مماطل كتب أملاكه لزوجه فراراً من العدل . فأما الموسر ذو التقوى فيريد أن يدفع المائة الجنيه عشرين . فأما الثالثون ، فقد حسروا لنا اللثام عن بطش وكيد . فإنذاراتهم ما تنفد وعنتهم ما ينتهي .

ودخلت المحاكم فكم أموال أنا في حاجة إليها أخذتها مني ، وكم قال لي المحامون : هات .

وأدركني اليأس من طهارة الذمم ، وروعني خراب الضمائر ، وثقلت علي وطأة الحياة ، وأصبحت لا أتبين في غمرات المظالم طريقاً

وقمت يوماً في متجري أرسل فكري في ظلمات الأحداث المحدقة ، وأنا متوجعاً على المحيط الذي أنا فيه خلوه من رجل يستوحي الضمير ويقدر الشرف ، وأدير عيني في مكان أبي وجدي فلا أراهما ، وغشيني هم أذهلني عما حولي فترة ، فما نبهني غير صوت غلام في نحو الثانية عشرة يلبس جلباباً قذراً وطاقية رخيصة ويحمل علبة صفيح صدئة يقول لي وهو يمد يده إلى بالعلبة : ياعمي محمد ! خذ حقك واحداً وستين قرشاً . قلت مستغرباً : أي حق يابني ؟ قال : حقك ... ثمن الدقيق الذي اشتراه أبي أحمد الناجي ، وثمن الحلاوة الطحينية التي أعطيتنيها .

وغمرتني الدهشة ، فقد طوى النسيان صاحبه منذ سنين على احمد الناجي ، ولكني سرعان ما ذكرته . ذكرت لهجته ، وذكرت فقره ، وذكرت جدي وأبي وما قالا في شأنه وما فعلا ، وذكرت الدقيق والحلاوة ، وذكرت قوله لابنه وهو يحتضنه في حنان وأسف : يا بني المسكين ... تأكل مما يقترض أبوك .

ذكرت هذا كله ، وتفكرت فيما أرى من الغلام ، فهزني هذا التصرف الكبير منه ، وكأني أمام حادثة من خيال الشعراء ، وقلت جاداً : خل هذا المبلغ لك يا بني ؛ فأجاب في تمرد وقد ارجد وجهه : أتريد أن يدخل أبي النار ؟ ... لقد قال لي وهو في أشد التعب قبل أن تصرخ عمتي بأنه مات بوتت قصير ، قال لي : يا علي ! إذا أراد الله لك أن تشب وتجتاز السنين وتكسب شيئاً فلا تنس أن تسدد ثمن الدقيق والحلاوة . وما دمت كبرت واشتغلت في مصنع السجاد بخمسة قروش في اليوم فلا بد أن أقضي دين أبي ليدخل الجنة ...

وأشرق وجه الغلام وهو يضع النقود على مكتبي في عزم وإصرار ، وابتسم ثغره ثم مضى في قوة شامخة .

ليب السعير